

محاولة في الكشف عن أمراضنا الفكرية و الاجتماعية
"الحالة العراقية" ... أنموذجا
القريبة " للحالة العربستانية "

د. علي الوردى... في الطبيعة البشرية

تقديم: سعد البزاز

الحلقة الرابعة

خذ مثلا توأمين متشابهين في جميع صفاتهما الوراثة ، ثم نشأ في بيت واحد ، ولكنهما مع ذلك لا يمكن أن يمرّا معا بتجارب و أحداث متماثلة في طفولتهما و صباهما و شبابهما ، و لابد من أن تكون هذه التجارب و الأحداث مختلفة على وجه من الوجوه مما يؤدي إلى شيء من الاختلاف في تكوين شخصيتهما .

يأتي أحد الباحثين بمثل واقعي على ذلك هو أن امرأة كانت تمشي على رصيف الشارع و معها طفلاها التوأمان . فهي كانت تحمل احد الطفلين على إحدى يديها بينما كان الطفل الثاني يمشي معها على الرصيف و هي تقوده بيدها الأخرى . و شاءت المصادفة أن تقع حادثة قتل فظيعة خلف نافذة قريبة بحيث شاهدها الطفل المحمول بينما كان الطفل الآخر غافلا عنها .

أن مشاهدة الحادثة الفظيعة لا بد من أن يكون لها أثرها في نفس الطفل الذي شاهدها ، بينما هي لم تؤثر على نفس الطفل الآخر . و هذا يمكن أن يُعد نموذجا لما يجري في الحياة من تجارب و أحداث مختلفة و مبلغ تأثيرها على الذي شاهدها أو شاركوا فيها . إن كل إنسان لا بد من أن تمر به أحداث و تجارب تختلف عما يمر بها الآخر ، فضلا عما لدى كل إنسان من صفات وراثية تجعل تأثير الأحداث و التجارب فيها مختلفا عن تأثيرها في الآخر .

إن تعداد البشر الذين يعيشون على وجه هذه الأرض يزيد على الخمسة مليارات . و مما يلفت النظر أن كل واحد من هذه المليارات له شخصية خاصة به تميزه عن شخصية غيره .

و هذا أمر يجب أن نضعه أمام أبصارنا عندما نريد التعايش مع الناس و التعامل معهم .
مشكلة بعضنا أنهم يتعجبون أو يمتعضون حين يرون غيرهم يختلفون عنهم في بعض مظاهر السلوك و
التفكير . إنهم لا يدرون أن غيرهم قد يتعجبون منهم أو يمتعضون كذلك .
فكل إنسان راضٍ عن نفسه على نحو ما ورد في المثل العربي القديم . و قد جاء في الحديث النبوي
قوله (ص) : " رحم الله امرءاً شغله عيبه عن النظر إلى عيوب غيره " .

س : اسمح لي أن أعترض عليك . فإن كلامك الذي قلته الآن يؤدي بنا إلى نتيجة غير مقبولة عقليا .
و يبدو من كلامك أن شخصية الإنسان مصنوعة بعوامل إرادة للإنسان فيها ، و معنى هذا أن الإنسان
مسير في أعماله لا مخير و أن قوة الإرادة و الدأب و المثابرة لا اثر لها في تقرير مصير الإنسان أو
نجاحه في الحياة .
فما جوابك على هذا ؟

ج : إن قوة الإرادة و المثابرة و الدأب لها تأثيرها في تقرير مصير الإنسان ولكن هذا التأثير له حدود
يقف عندها . و قد أخطأ القدماء حين قالوا " كل من جد وجد " أو " كل من سار على الدرب وصل " .
أو " هم الرجال تززع الجبال " ...

إن الإنسان الذي يريد أن يصل إلى هدف له في الحياة يجب أن يعلم قبل كل شيء أن النجاح في الوصول
إلى الهدف المنشود يحتاج إلى قدرات نفسية و ظروف اجتماعية تؤهله له ، و بغير هذه القدرات و
الظروف فإن الجهد المبذول كثير ما يؤدي إلى مردود عكسي .

خذ مثلا شخصا يريد أن يكون عالما مشهورا و هو لا يملك الذكاء المناسب أو الظروف الملائمة ، فهو
مهما اجتهد و ثابر ذهبت جهوده عبثا ، و قد تؤدي به الجهود إلى الإصابة بالعقد النفسية أو الجنون .
أن هذا الشخص يشبه ذلك الرجل النحيل الضعيف العضلات و هو يريد أن يكون مصارعا يغلب الأقران ،
أو الرجل الذي لا يملك الصوت الجميل و هو يريد أن يكون مغنيا مشهورا .

أوضح مثل يمكن أن نأتي به في هذا الصدد هو المخترع المشهور أديسون الذي اخترع المصباح
الكهربائي و الحاكي و المخترعات الأخرى ، فهذا الرجل كان موهوبا بموهبة نفسية كبرى مكنته من
الاختراع ، و هي موهبة لم يخلقها أديسون في نفسه بإرادته بل هي كانت مخلوقة فيه ، ثم اتاحت له
الظروف أن ينمي تلك الموهبة فيه و أن يدرّبها لكي تعطي ثمارها بعدئذ .

ليس في مقدور أي واحد منا أن يكون أديسون عن طريق بذل الجهود و الدأب و المثابرة ، و يمكن أن
نقول مثل هذا عن أي شخص يسعى نحو العظمة أو الشهرة في أي مجال من مجالات الحياة . فإن كل
مجال في الحياة يحتاج إلى موهبة أو قدرة تؤهل صاحبها إلى نجاح فيه ، و بغير هذه القدرة فإن بذل
الجهد لا ينفع أو يضر بدلا من أن ينفع .

س : المعروف عن أديسون هذا الذي ذكرته أنه قال أن بذل الجهد والدأب هو السبب الأكبر في نجاح الإنسان و تأتي الموهبة في الدرجة الثانية في ذلك ، و ينسب إليه القول بأن الموهبة تمثل اثنين بالمئة في النجاح بينما الجهد يمثل 98 بالمائة . فما قولك ؟

ج : مشكلة بعض أولي المواهب أنهم لا يعرفون أنهم موهوبون بها . فالذكي المفرط في ذكائه لا يدري أنه مفرط في الذكاء ، و قد يتصور أنه لا يختلف عن غيره في درجة ذكائه و قد ضاعت من جراء ذلك مواهب الكثيرين في زحام هذه الدنيا .

يبدو أن أديسون كان من هذا النمط ، أو أنه كان متواضعا لا يريد أن يتباهى بموهبته على الناس . و نحن لو درسنا مسيرة هذا الرجل لوجدنا أن الموهبة كان لها الأثر في نجاحه العظيم .

ليس هنا مجال الإسهاب في ذكر سيرة هذا الرجل ، و قد يكفي أن أقول أنه عندما أدخل إلى المدرسة في طفولته لم يوفق فيها ، فبعد مرور ثلاثة أشهر من دخوله فيها كتب مدير المدرسة إلى أمه يصف ابنها بأنه مصاب بالتخلف العقلي و قال عنه أنه لا خير فيه . و لهذا فقد تقرر إخراجه من المدرسة .

يمكن القول أن ذكاء أديسون في طفولته كان أرفع كثيرا من مستوى أقرانه من التلاميذ و ربما كان أرفع من مستوى معلميه . و هذا هو الذي جعله لا يستطيع التكيف مع محيطه المدرسي . و يقال عنه أنه كان محبا للاستطلاع إلى درجة عجيبة غير مألوفة . فكان يسأل عن كل شيء يراه و يلح في سؤاله . لو أن أديسون هذا كان قد ولد في قرية بدائية منعزلة لكان ذكاؤه المفرط شؤما عليه و لظل طوال حياته لا خير فيه ثم مات أخيرا غير مأسوف عليه .

من حسن حظ هذا الرجل أنه ولد في حضارة راقية من جهة ، و أنه كانت له أم عاقلة مثقفة من الجهة الأخرى ، فقد تولت أمه تعليمه بعد إخراجه من المدرسة ، ثم أتيت له بعد ذلك من الظروف و المصادفات ما جعله قادرا على استثمار موهبته الذكائية الخارقة حتى صار أخيرا أشهر مخترع في تاريخ البشر ، أو أعظم مخترع فيه .

خلاصة ما أريد قوله في هذا الصدد هي أن كل فرد من البشر ليس له يد في صنع شخصيته إلا ضمن حد محدود . فهو صنعية عوامل لا إرادة له فيها إلا قليلا ..

س : أريد أن أعترض عليك مرة أخرى . فإن كلامك هذا يؤدي بنا إلى الاستسلام للقدر حسب المبدأ القائل : " ما يصيبنا إلا نصيبنا " . و هذا المبدأ كان شعار المجتمعات القديمة المتخلفة بينما نحن الآن نتطلع نحو عصر النهضة و التقدم ، و الرجاء منك أن تشرح لنا موقفك بوضوح .

ج : قلت أنفا أن بذل الجهد و الدأب و المثابرة لها تأثيرها في تقرير مصير الإنسان ولكن هذا التأثير له حد يقف عنده . فإن الذي يبذل الجهد في مجال لا قدرة له فيه أو موهبة لا بد أن يكون مصيره الفشل الذريع ، و كذلك الذي يبذل الجهد في ظروف غير ملائمة فهو يجب أن لا يتوقع لنفسه النجاح . أن مبدأ " كل من جدّ وجد " خطأ ، ولكن المبدأ المناقض له أي مبدأ الاستسلام للقدر خطأ أيضا ، أما المبدأ الصحيح فهو الذي يكون في الوسط بين هذين المبدأين المتناقضين .

إن المبدأ الأول كثيرا ما يؤدي إلى ضياع الجهود و تحطيم الشخصية لأنه يجعل الإنسان يسعى نحو هدفه في الحياة هو فوق نطاق قدرته ، إن كل مجال أو مهنة في الحياة في حاجة إلى قدرة أو موهبة تؤهله لها ، فالذي يطمح أن يكون عالما مشهورا مثلا يجب أن تكون لديه درجة عالية من الذكاء ، و إلا فإن جده و كدحه سيذهبان عبثا ، و ربما أدى به إلى الإصابة بالعقدة النفسية أو الجنون ، وقد رأينا من أمثال هذا كثيرين مع الأسف الشديد .

أما المبدأ الثاني فهو قد يضر الإنسان أيضا من الجهة الأخرى ، إذ هو يجعله يهمل نفسه و ما لديه من مواهب و قدرات معتقدا أن الجدّ لا جدوى منه ، و هو بذلك يضر نفسه و مجتمعه . إن السعي و الدأب و المثابرة ضرورية للإنسان الذي يريد النجاح في الحياة ولكنها في الوقت نفسه مشروطة بما لدى الإنسان من مواهب و قدرات .

يتنبأ العلماء بمجيء يوم يسير البشر فيه على الطريقة الوسطي بين ذينك المبدأين ، فالطفل عندما يشب عن الطوق يخضع للفحوص النفسية و البدنية المختلفة من أجل اكتشاف المواهب و القدرات التي يملكها ، ثم يوجه نحو المهنة التي هو مؤهل لها . و بدأ ينتفع هو و ينتفع مجتمعه معه .

ستتبع في الحلقات القادمة... فكونوا معنا لقراءة الأفكار الاجتماعية المثيرة التي طرحها

الدكتور : علي الوردى

عادل السويدي

31 – 10 – 2003 م